ثَـقْرَطَة الجيش الإسرائيليّ

أشرف بدر

امتنع المتديّنون الحريديّون عن الانخراط في صفوف الجيش الإسرائيليّ مع بداية تأسيس دولة إسرائيل. جرى تقنين هذا "الامتناع" عبْر اتّفاقيّة الوضع الراهن التي وُقّع عليها في حزيران عام 1947. كانت هنالك خشية حقيقيّة من قِبَل قيادات الحاخامات من ذَوَبان الشبّان المتديّنين في أتون قِيَم الجيش العلمانيّة، التي لا تحترم تعليمات التوراة (كالحفاظ على السبت، وتناول الأكل الحلال -"كاشير"). مع مرور الوقت، برزت لدى القيادة الإسرائيليّة مشكلة تزايد أعداد المتديّنين العازفين عن الخدمة العسكريّة بذريعة التفرّغ لدراسة التوراة. حُلّت المشكلة على نحوٍ جزئيّ عام 1965، وذلك عبْر التوصّل إلى تسوية بين حاخامات الصهيونيّة المتديّنة والجيش. بموجب هذه التسوية، جرى الدمج بين التعليمِ العالي للتوراة والخدمةِ العسكريّة في الجيش في مدارس توراتيّة خاصّة تسمّى "يشيڤات هيسدِر" (مدارس دينيّة تسبق الخدمة العسكريّة)، وذلك مقابل قيام الجيش بدمج المتجنّدين المتديّنين في وحدات متجانسة بعد سنتين من دراستهم، وتقليص مدّة خدمتهم العسكريّة إلى ستّة عشر شهرًا. طرأ تحوُّل فكريّ في أوساط الصهيونيّة المتديّنة عقب حرب العام 1967، حيث تغيّرت نظرة المتديّنين للجيش بسبب استيلاء إسرائيل على حائط البُراق (الجدار الجنوبيّ)، وغيره من الأماكن المقدّسة الواردة في التوراة، فجميع الأماكن الدينيّة المذكورة في التوراة تقع في الأراضي التي احتُلّت عام 1967. إذّاك بدأت بعض الأوساط داخل التيّار الصهيونيّ المتديّن تُطْلِق على الجيش اسم "جيش الله"، ممّا أسهم في تعزيز التوجّه نحو خدمة المتديّنين في الجيش، وهكذا شهدت سبعينيّات القرن العشرين زيادة مطّردة في أعداد الضبّاط المتديّنين القادمين من "يشيڤات هيسدِر".

سنحت الفرصة لخرّيجي "يشيڤات هيسدِر" أن يتغلغلوا في الجيش عقب حرب العام 1973. جوبهت محاولة المتديّنين من خرّيجي "يشيڤات هيسدِر" للتغلغل في المواقع المتقدّمة في الجيش بمعارضة قيادة الجيش العلمانيّة، وهو ما بدا منطقيًّا إذ من غير المتوقَّع أن تتخلّى القيادة العلمانيّة لدولة إسرائيل بسهولة عن أهمّ أداة للتحكّم والسيطرة: الجيش. عمل المتديّنون بطريقة غير مباشرة للتغلّب على هذا العائق بغية اختراق شريحة الضبّاط، وذلك عبْر إنشاء كلّيّات عسكريّة تمهيديّة تُعتبر مثابة إطار تحضيريّ قبل الخدمة العسكريّة، وينتسب إليها طلّاب من مَشارب مختلفة (من علمانيّين ومتديّنين). ومن هنا يمكن الاستنتاج أنّ الصهيونيّة الدينيّة استطاعت من خلال هذه الكلّيّات ضرب عصفورين بحجر واحد؛ فمن ناحية اختَرَقت شريحةَ الضبّاط من خلال كلّيّة مختلطة تضمّ علمانيّين ومتديّنين بحيث يصعب تصنيف خرّيجي الكلّيّة من التيّار الدينيّ، ومن جانب آخر حافظت على منتسبيها من الذوبان والتأثّر بالقيم العلمانيّة من خلال العودة للدراسة عقب انتهاء الخدمة العسكريّة لمدّة أربع سنوات، وذلك لضمان إعادة "شحنهم" بالقيم الدينيّة.

مثّل ظهور هذه الأكاديميّات نقطة تحوُّل فارقة في عدد المتديّنين الذين يتجنّدون للوحدات المختارة ونسبة الضبّاط المتديّنين. في العَقد الأوّل من الألفيّة الثالثة، حصل ارتفاع ملحوظ في نسبة الضبّاط المتديّنين في الوحدات القتاليّة، فقد بلغت نسبتهم ضعفَيْ نسبة المتديّنين في الجيش عامّة. من بين أسباب ذلك الارتفاعِ ازديادُ عدد الشبّان المتديّنين في الأطر التحضيريّة. يضاف إلى ذلك انطلاق انتفاضة الأقصى التي زادت من

مخاوف المستوطنين المتديّنين على أمنهم الشخصيّ، فتوجّهوا للخدمة في الجيش، بعد أن اعتبر بعض حاخاماتهم أنّ الانتفاضة هي مثابة حرب دينيّة هدفها تصفية الكيان اليهوديّ وهُويّته. لكن في فترة ما قبل الانسحاب (الانفصال) عن غزّة عام 2005، حصل هبوط في نسبة المتطوّعين للخدمة في الجيش من أتْباع التيّار الدينيّ القوميّ، وذلك مخافة أن يُرغَموا على تنفيذ إخلاء المستوطنات. وبعد سنة من الانفصال، سُجِّل نوع من أنواع التمرّد على الخدمة العسكريّة، فارتفعت نسبة المتديّنين الذين طالبوا بإعفائهم من التجنيد بذريعة التفرّغ لدراسة التوراة.

العوامل التي أسهمت في زيادة عدد المتديّنين في الجيش:

ما يُعتبر العاملَ الأساسيّ في زيادة عدد المتدينيّن في الجيش هو حثّ المرجعيّات الدينيّة أتباعها على الانخراط في الوحدات القتاليّة تحديدًا، وذلك أنّها تدرك أنّ السيطرة على المواقع القياديّة في الجيش تمنح هذا التيّار القدرة على التأثير في المجتمع؛ فإفشال أيّ خطوة سياسيّة لن ينجح من خارج المؤسّسة الحاكمة بل سينجح من داخلها، بما أنّ مؤسّسة الجيش هي المؤسّسة الأكثر تأثيرًا في المجتمع الإسرائيليّ، فقبل أيّ انسحاب من أراضٍ محتلّة أو إخلاء للمستوطنات، يستعين المستوى السياسيّ برأي المستوى المهنيّ، وهو في هذه الحالة الجيش والقوى الأمنيّة. يضاف إلى ذلك أنّ معظم أفراد النخبة الحاكمة (نوّاب الكنيست؛ الوزراء، رؤساء الأحزاب) تخرّجوا من المؤسّسة العسكريّة؛ فالناخبون الإسرائيليّون يُوْلُون الجانبَ الأمنيّ أهمّيّةً فائقة أثناء اختيار ممثّليهم للكنيست، وهذا يفسّر حرص الأحزاب الإسرائيليّة المتنافسة على ضمّ الجنرالات المتقاعدين إلى صفوفها، وكذلك يفسّر حرصَ بنيامين نتنياهو الدائم على الظهور بمظهر رجل الأمن الذي يتصدّى "للإرهاب" بقوّة.

هنالك عوامل أخرى أسهمت في زيادة عدد المتديّنين في الجيش الإسرائيليّ، منها ما هو دينيّ متعلّق بالثقافة التوراتيّة، ومنها ما هو اقتصاديّ أو سياسيّ اجتماعيّ. ثمّة علاقة جدليّة بين العوامل الثقافيّة الثيولوجيّة والعوامل الاقتصاديّة الاجتماعيّة، إذ يتداخل بعضها في بعض ويغدو من الصعب الفصل بينها.

على الصعيد الثقافيّ، اعتبر الإسرائيليّون الجيش منذ تأسيسه "جيش الشعب"، ويراه معظمهم رمزًا للهُويّة والتضامن في الدولة الجديدة، وكوسيلة لخلق اليهوديّ الجديد الفاعل المختلف عن يهوديّ "الشتات". يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ الصهيونيّة -بوصفها مشروعًا استعماريًّا استيطانيًّا- تعتمد على العنف لتحقيق مشروعها، وفي السياق نفسه نجد أنّ الصهيونيّة المتديّنة ترى استخدام القوّة قيمة في حدّ ذاتها، وبالتالي فإنّ الانخراط في الحياة العسكريّة يجسّد هذه القيمة، وقد أعطى انتصار إسرائيل في حرب العام 1967 دفعة كبيرة لمقولات الصهيونيّة الدينيّة، باقتراب الخلاص عبْر "تحرير" الأماكن المقدّسة المذكورة في التوراة، ممّا دفعها إلى إطلاق التسمية "جيش الله" على الجيش الإسرائيليّ، وبالتالي كسر الحاجز "الأيديولوجيّ" بين المتديّنين والانخراط في الخدمة العسكريّة، حيث اعتبرت الصهيونيّة المتديّنة أنّ حرب عام 1967 عبارة عن حرب دينيّة يهوديّة، وأنّ النصر "الساحق" الذي حقّقته إسرائيل مَرَدُّه إلى الدعم الإلهيّ الجبّار.

أمّا على الصعيد الاقتصاديّ، فنجد أنّ التحوّل الأهمّ جاء بعد تبنّي الدولة للاقتصاد الحرّ بديلًا عن الاقتصاد المركزيّ، ممّا أسهم في صعود سياسات الهُويّة؛ فشريحتا المتدينيّن والشرقيّين بوصفهما الأكثر فقرًا أصبح أفرادهما مهتمّين بالحصول على امتيازات خاصّة بهم، ولا سيّما بعد فقدانهم جزءًا منها نتيجة اللَّبْرَلة وتآكل نظام "دولة الرفاه" الذي كان سائدًا في عهد حزب العمل "الاشتراكيّ". وبحسب سياسات الهُويّة، فإنّ الحديث يدور حول السعي للمصلحة الذاتيّة للفئات الاجتماعيّة، وهذا يفسّر توجّه الناخبين نحو الأحزاب اليمينيّة الدينيّة التي توفّر لمنتسبيها خدمات اجتماعيّة ومخصّصات ماليّة. أدّى التحوّل الاقتصاديّ إلى التخلّي عن الروح الجماهيريّة (الجمعانيّة) التي ميّزت حكم "مباي" (العمل)، لتحلّ محلّها الروح الفردانيّة بالترافق مع تفكيك سيطرة حزب "مباي" على مؤسّسات الدولة. وهكذا نجد أنّ مؤسّسة الجيش التي تحظى باحترام المجتمع

الإسرائيليّ أصبحت بمثابة ممرّ ضروريّ للصهيونيّين المتديّنين، في سبيل الترقّي في السلّم الاجتماعيّ من جهة، ولضمان التأثير في المجتمع والسياسات العامّة من جهة أخرى؛ فكثير من الوظائف التي يجري الإعلان عنها بواسطة الشركات الخاصّة تشترط على المتقدّمين إليها أن يكونوا قد أنهوا الخدمة العسكريّة، وهذا بدوره حوّل الخدمة العسكريّة إلى وسيلة من أجل ضمان وظيفة جيّدة، علاوة على أنّ معظم أفراد النخبة السياسيّة المؤثّرة قادمون من المؤسّسة العسكريّة على اعتبار أنّ معظمهم ضبّاط متقاعدون، وبالتالي فإنّ ذلك يُفضي إلى زيادة تأثير المتديّنين في صنع القرار. ينضاف إلى ذلك أنّ انتشار روح الفردانيّة المرتبط بالحداثة قلّل من دافعيّة الشبّان الإسرائيليّين العلمانيّين للخدمة في الجيش، وزاد من توجُّههم إلى سوق العمل من أجل بناء مستقبلهم الاقتصاديّ، ممّا ترك فراغًا سدّه المتديّنون الذين تُحرّكهم الروح الجمعانيّة والاستعداد للتضحية بأرواحهم من أجل المجموع، ويملكون دافعًا قويًّا تحرّكه الأيديولوجيا للخدمة العسكريّة. مع الأخذ بالاعتبار أنّ الفكر العنصريّ بطبيعته معادٍ للفردانيّة، فالجماعة مقدَّمة على الفرد، والفرد مكرَّس للجماعة ولا يحصل على قيمة إلّا من خلال انتمائه إليها، نجد -من ناحية أخرى- أنّ فكرة "الخلاص" التي تنادي بها الصهيونيّة الدينيّة قائمة على الخلاص الجماعيّ لا الفرديّ.

على الصعيد السياسيّ، لم يكن "الانقلاب" الانتخابيّ عام 1977 ليحدث لولا تضافر عدّة عوامل اجتماعيّة وسياسيّة، يتصدّرها استغلال الليكود الإخفاقَ في حرب عام 1973، محرّضًا على حكومة حزب العمل كونها غير قادرة على توفير الأمن. أسهم الجدل الإسرائيليّ حول الحرب عام 1973 في تعزيز ادّعاء الصهيونيّة الدينيّة أنّ الابتعاد عن التوراة هو سبب الهزيمة، وأنّ النصر لا يتحقّق إلّا بالتمسّك بتعاليم التوراة، وهكذا توجّهت قِطاعات الشبّان المتديّنين للخدمة العسكريّة بغية حماية "أرض الميعاد" من أعدائها العرب، على اعتبار أنّ العلمانيّين فشلوا في هذا الأمر.

خاتمة:

دفع ازدياد نسبة الضبّاط المتديّنين في الجيش الإسرائيليّ بعضَ الإسرائيليّين للقول إنّ الجيش الإسرائيليّ لا يمرّ بعمليّة تديُّن فحسب، بل يمرّ كذلك بعمليّة ثَقْرَطة (من "الثيوقراطيّة" -أي السلطة الدينيّة)، عبْر تغلغل يزحف بصورة تدريجيّة إلى السلطات الدينيّة المدنيّة للجيش، في محاولة منها للهَيْمَنة عليه في أكثر من مستوى، من خلال تغيير نظام المحفّزات العسكريّة الذي كان منحازًا إلى الطبقة الوسطى العلمانيّة، ومحاولة ثَقْرَطته وتعريف مهامّه تعريفًا دينيًّا حتّى يضمن الجيش انضمام المتديّنين إلى الوحدات القتاليّة.

خشية القوى العلمانيّة في المجتمع الإسرائيليّ من الضبّاط المتديّنين تنبع من كونهم استبدلوا تعريف الخدمة العسكريّة بأنّها واجب مدنيّ بتعريفها بأنّها واجب دينيّ، وبالتالي أصبح هنالك شكّ في ولائهم للدولة والمؤسّسة السياسيّة الحاكمة. وبالتالي، السؤال المطروح داخل إسرائيل: عند المحكّ، أوامرَ مَنْ سينفِّذ الضبّاط المتديّنون؟ هل سيطيعون أوامر ضبّاطِهم الأعلى رتبة والمستوى السياسيّ، أم سيطيعون أوامر الحاخامات والمرجعيّات الدينيّة؟ وإنْ صدَرَ أمر يخالف معتقداتهم الدينيّة (كإخلاء مستوطنة –على سبيل المثال)، فهل سيمتثلون للأوامر؟ فالصهيونيّة المتديّنة تقوم على فكرة "أرض إسرائيل الكاملة"، حيث لا تنازُلَ ولا انسحابَ ولا تَخلِّيَ عن طريق الإيمان بضرورة استيطان جميع أرجاء "أرض إسرائيل"، وحيث حقّ اليهود في هذه البلاد ليس خاضعًا لقوانين الشعوب، بل هو حقّ حصلوا عليه من الله ومن التوراة، وإذا كانت قوانين الدولة لا تتّفق مع أوامر الله، فإنّ الواجب يدعو إلى عدم الانصياع لها لأنّ الاستيطان في المناطق المحتلّة هو هدف أسمى، فهو في اعتقادهم يجري تنفيذًا لإرادة الله لا تنفيذًا للقانون الإسرائيليّ.

علاوة على ما سبق، هنالك تخوُّف من جانب القوى العلمانيّة من أن يقوم الضبّاط المتديّنون بفرض التعاليم الدينيّة اليهوديّة الأرثوذكسيّة على زملائهم في الجيش (كمنع خدمة النساء بالجيش)، كخطوة تمهيديّة من أجل فرضها على المجتمع ككلّ، وخصوصًا أنّ الشبّان المنتسبين للجيش لا يملكون القدرة (بسبب قلّة معرفتهم)

على نقد أو رفض الأفكار التي توجَّه إليهم، إذ يرونهم مدرَّبين على تلقّي الأوامر دون نقاش، وبالتالي يستغلّ الضبّاط المتديّنون السطوة العسكريّة ابتغاءَ فرض رؤيتهم للحياة وحسم الصراع الهُويّاتيّ المستعر بين العلمانيّين والمتديّنين، بمعنى حسم الخلاف بين العلمانيّين والمتديّنين على تعريف الدولة ديمقراطيّة أو يهوديّة بقوّة السلاح.